الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم ﴿١﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿٢﴾ لعلك باخع نفسك
ألا يكونوا مؤمنين ﴿٣﴾ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت
أعناقهم لها خاضعين ﴿٤﴾ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث
إلا كانوا عنه معرضين ﴿٥﴾ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا
به يستهزءون ﴿٦﴾ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج
كريم ﴿٧﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٨﴾ وإن
ربك لهو العزيز الرحيم ﴿٩﴾ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم
الظالمين ﴿١٠﴾ قوم فرعون ألا يتقون ﴿١١﴾ قال رب إني أخاف
أن يكذبون ﴿١٢﴾ ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل
إلى هارون ﴿١٣﴾ ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴿١٤﴾ قال
كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴿١٥﴾ فأتيا فرعون
فقولا إنا رسول رب العالمين ﴿١٦﴾ أن أرسل معنا بني إسرائيل
﴿١٧﴾ قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ﴿١٨﴾
وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴿١٩﴾

٣٦٧

سورة الشعراء

معانى الكلمات :

باخع نفسك : مهلكها حسرة .

آية : دلالة واضحة .

أعناقهم : جماعاتهم .

محدث : مجدد .

زوج كريم : صنف حسن من النبات .

لا ينطلق لسانى : لا أستطيع التوضيح .

ذنب : عقاب على ذنب سابق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة التكاليف الربانية .

٢ ـ أن يتعرف المؤمن على قدراته الحقيقة فى دعوته .

٣ ـ أن يؤدى المؤمن دوره فى دعوته بدون إفراط ولا تفريط .

المحتوى التربوى :

شأن هذه السورة كشأن السور المكية موضوعها العقيدة ، فتتحدث السورة عن توحيد الله والخوف من الآخرة، والتصديق بالوحى المنزل على محمد ، ثم التخويف من عاقبة التكذيب ، ثم تسلية الرسول وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن ، وطمأنة قلوب المؤمنين ، وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا فى سبيلها ، وجسم السورة هو القصص القرآنى ، يغلب عليه جو الإنذار والتكذيب .

ثم تبدأ السورة بذكر أحرف مقطعة للتنبيه إلى أن آيات الله مؤلفة من مثل هذه الأحرف ، والكفار لا يستطيعون أن يصوغوا من هذه الأحرف مثل هذا الكتاب المبين فهؤلاء ضعاف أمام قوة الإيمان وقوة القرآن .

obeikandi.com

وبعد ذلك يخاطب الرسول ألا يؤذيه قول المشركين وتكذيبهم له وللقرآن ، فلو شاء الله لأهلك الكافرين بآية من عنده ، ولكن شاء الله أن يجعل القرآن هو معجزة هذه الرسالة ، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوى الأصناف فى أمة بعينها ، بل هى رسالة مفتوحة لجميع الأمم فى كل زمان ومكان ، يعطى كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفد بل يتجدد .

لكن الحس الخامد ، والذهن البليد ، والقلب المغلق يعرض عن ذكر ربه ، بل يقابل ذلك بالاستهزاء ، فيأتى التهديد اللازم المقابل لاستهزائهم أنهم سيذوقون العذاب ، فهم يطلبون آية خارقة ، ويغفلون عن آيات الله فيما حولهم ، وفيه الكفاية للقلب المفتوح والحس البصير ، وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب .

ومعجزة إخراج النبات الحى من الأرض ، وجعله ذكرًا وأنثى ، إما منفصلين كما فى بعض فصائل النبات ، وإما مجتمعين . كما هو الغالب فى عالم النبات ، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث فى عود واحد ، هذه المعجزة تتكرر فى الأرض حولهم فى كل لحظة ، والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية .

واللفظ يوحى إلى النفس باستقبال صنع الله بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال ، ولا بالاستهانة والغفلة والإغفال والإغفال ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ وهو يطلبون الآيات ، ولكن أكثرهم لا يؤمن بهذه الآية .

ويأتى التذييل: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ عزيز فى إظهار إبداع الآيات ، ورحمته أن يمهل المكذبين فلا يعذب الكفار حتى يأتيهم نذير ، فيبعث الرسل بالتبصير والتنوير والتبشير والتحذير ، وهذا ما يفرضه الواقع الآن أن ينشط الدعاة ، ويبذلوا كل الوسع والطاقة ، لا يروا الواقع أسود ، بل يبددوا هذا بعزائمهم القوية، وبالنور الذى أمدهم به ، وهو كتاب ربهم وسنة نبيهم .

يقول صاحب الأساس : « تحدثت المقدمة عن كفاية هذه الآيات للإيمان ، وعن موقف أكثر الخلق منها ، وعن الحكمة فى عدم إنزال آيات غير ما أنزل ، ثم لفتت النظر إلى آية دالة على وجود الله ، وهى أصناف النبات ، ومع ذلك فإن الخلق لا يؤمنون ، فالعلة فيهم ومنهم ، وعلى الرسول أن يدرك ذلك وألا يحزن » .

ثم تأتى قصة موسى عليه السلام ، وفى المشهد الأول منها المناجاة بين موسى وربه عندما كلفه الله ـ عز وجل ـ بالرسالة ، وأن يذهب إلى فرعون ، فشكا موسى ضعفه ، وطلب إعانته بهارون وأن يكون رسولا معه، وهذا ليس نكوصًا لا اعتذارًا عن الرسالة بل التقاء للتقصير فى أداء التكليف، ولأن هارون أفصح منه لسانا وأهدأ انفعالًا ، وهكذا علمنا الكليم أن يعرف نفسه ، وكيف ننهض بالدعوة ، وأن يكون كلٌّ فى موقعه الصحيح .

ويتابع موسى المناجاة ، ونتابع معه خوفه على الرسالة فى قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ فإن ذكره لهذا ليس للخوف من المواجهة والتخلى عن التكليف ، ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون ، فإذا قتلوه قام هارون بالرسالة من بعده ، **يقول صاحب الظلال فى ذلك** : « هو الاحتياط للدعوة لا الداعية ، يحتاط فى أن يحتبس لسانه فى الأولى المشافهة ، والاحتياط فى أن يقتلوه فى الثانية ، فتتوقف دعوة ربه ، وهو على إبلاغها واطرادها حريص ، وهذا يليق بموسى عليه السلام الذى صنعه الله على عينه ـ واصطنعه لنفسه » .

ومع حرص الداعية ـ موسى ـ وإشفاقه واحتياطه يطمئنه الله أن معية الله تحوطه فهو يسمع ويرى للتعبير عن دقة الرعاية وحضور المعونة بالنصر والتأييد والغلبة فى كل موقف .

ثم يعقب ذلك مشهد المواجهة مع فرعون بأن واجه موسى فرعون بمضمون الرسالة، وأشدها على فرعون الذى ادعى الألوهية ـ بقوله أنه رسول من رب العالمين ، أى مواجهة صريحة مع أعتى العتاة ، ثم طلب تحرير قومه من العبودية والإذلال بإخراجهم من مصر،يطلب ذلك الطلب الضخم،وآخر عهده بموسى أن كان ربيبًا فى قصره منذ أن كان من حاشية فرعون ، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ، ونظر إليه بعين الإزدراء والفحص ، أما أنت الذى ربيناه فينا ، وفى بيتنا وعلى فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ، والملاحظ أن موسى حدد مطلبا رئيسيا من فرعون، وهو الإذن لبنى إسرائيل فى الخروج من مصر، وهو مطلب سياسى ، .. والملاحظ أن فرعون فرَّ من الجواب على هذا المطلب الرئيسى بتذكير موسى بنعمته عليه . وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلا ، خاصة حكاية القتل وما فيها من تهديد ، وما يعقبها من قصاص ، فتغافل الطاغية عن الحقائق ؛ لأنه يعلم ضعفه وضعف حجته ولجأ لكل ما يلجأ إليه الضعفاء ، وظهر هذا الضعف فيما تلا هذه الآيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التنبيه لبلاغة القرآن وإعجازه وتدبره ودراسته .

٢ ـ السعى فى الدعوة إلى الله بنشاط دون كسل ودون إفراط فى الأسى على عدم استجابة المدعوين .

٣ ـ أن يعلم الإنسان ويرى مقداره الحقيقىّ فلا يظلمها بتعظيمها وإلا يبخسها حقها ، ولا يتحرج من طلب الإعانة فى الأمور الشاقة .

٤ ـ البعد عن الامتنان بالمعروف لأنه محبط للعمل الصالح .

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
٣٦٨

معانى الكلمات :

حكما : بنوة وعلماً .

عبدت بنى إسرائيل : اتخذتهم عبيداً لك .

بيضاء : تتلألأ كالشمس دون برص أو بهق .

أرجه : أخره .

المدائن : أطراف مملكتك .

لميقات : للموعد المحدد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن قيمة المعية الربانية .

٢ ـ أن يعرف المسلم العون الإلهى فى حوار موسى مع فرعون .

٣ ـ أن يستعين المؤمن بربه فى كل أموره الدعوية والحياتية والجهادية .

المحتوى التربوى :

تأتى الآيات لبيان معية الله ، فانطلق لسان موسى يجيب على فرعون : أنه فعل ما فعل بدافع العصبية لا العقيدة التى تعطينى الحكمة الآن ، وما تربيتى إلا فى بيتك إلا أنك اضطهدت قومى وقتلت أبناءهم ، فقذفتنى أمى فى التابوت ، فلم أرب فى بيت أبى وأمى وفى كنفها وحنانها ، فبهت فرعون من الجدال فى تلك المسألة ، فالله يعين أولياءه أمام الظالمين والعتاة عند الجدال والمحاجاة .

قال ابن كثير فى تفسير : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أى : « أحسنت إلى وربيتنى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخدماً ، أفيبقى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم وكان رداً فى غاية القوة ، وفيه درس للمشتغلين بقضايا تحرير

أقوامهم من ظالميهم وجلاديهم ، فلا يغفر سرقة الشعوب وإفساد المجتمعات وانتهاك الحرمات بنايةُ تشيد أو ما يشابه ذلك » .

وتتابع الردود الحجة بالحجة والكلمة بالكلمة ؛ لأن الصمت فى مقام التبليغ عجز وتوان وإخلال بالإمانة ، ففرعون ـ قبحه الله ـ يسأل : ما يارب العالمين ؟ افكان الجواب : إنه رب السموات والأرض وما بينهما الذى لا يبلغ فيه سلطان فرعون ذرة أو هباءة ، ويستمر ضعف الظالم فى نقل الخطاب لمن حوله ، ويستمر الرد المتصل بالمدد الربانى بأن رب السموات والأرض هو رب آبائهم ، فهو نفى للألوهية عن فرعون فى حضور بطانة السوء من حوله .

ولا يبالى الدعاة باتهامات المعرضين التى تكرر مع كل رسالة ، فيتهم موسى بالجنون فيستمر العون الإلهى ، بقول موسى إنه رب المشرق والمغرب وما فيهما من العظمة فهما يدلان على الشروق والغروب وكل منهما له مكان ، ولا يجادل فرعون فى ذلك ؛ حتى لا يكون مصيره كمصير النمرود .

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعى واليقظة ، ولا ينغم على أحد كما ينغم على من يهزون الضمائر الغافية ، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور .

ويتتابع الحوار الذى فقد فيه فرعون القدرة على الجدال ، ولأنه إزاء الدعوة القوية الصريحة التى تكاد تهز أوتار القلوب يلجأ لأسلوب الطغاة عندما تنتهى حججهم بتهديد موسى بأن مصيره السجن ، والدعاة يتوقعون ذلك دائما السجن والاعتقال والتشريد والتجويع ، فلم يُفقد التهديدُ الداعيةَ موسى رباطةَ جأشه بل هو الذى يمسك بالحوار بإحراج فرعون أمام ملئه بإظهار المعجزتين أمامه وأمام الملأ ، فأحس فرعون بضخامة المعجزة ، فأسرع يقاومها ، ويتملق القوم بقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « حمل فرعون حماية لطغيانه أمرين :

الأمر الأول : إنه بهذا لا يريد هداية وتعليما وإرشادًا وإصلاحا ، ولكن يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، والإخراج يكون لكم سلطان فى الأرض ، بل يكون الأمر لغيركم وتكونون عبيدًا تعيشون على هامش الحياة فيها .

الأمر الثانى : أن يكون له سلطان عليكم ، وذلك ذهاب لسلطانكم ، وإخراجه لكم من دياركم ، وإن ذلك كله بسحره ، وهذا ينبئ عن الفزع ، ولكنه فزع يتصور الويل والثبور وعظائم الأمور ، وإلا ما كان السحر ذاته مزيلا للملك ، ومخرجا من الديار .

وإنه فى هذا يستحث قومه على معاندة موسى ، وألا يميلوا كل الميل له ؛ لأنه عدو الديار ، ويكل الأمر إليهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ، يطلب استشارتهم متطامنا خاضعا وقد أحس أن الأمر يخرج عن سلطانه ، فيقول فى استشارتهم فماذا تأمرون ، أى ما الذى تأمرون به ، وإنى أنفذه.. » .

ويعقب صاحب الظلال على ذلك بقوله : « تلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، عندئذ يلينون فى القول بعد التجبر يلجؤون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام ، ويتظاهرون بالشورى إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون ، وأشار عليه الملأ ، وقد خدعتم مكيدته ، وهم شركاء فرعون فى باطله ، وأصحاب المصلحة فى بقاء الأوضاع التى تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ، وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير ، حين ترى معجزتى موسى وتسمع إلى ما يقول » .

وتأتى نتيجة خديعته لقومه ولأنه استخف قومه فأطاعوه ، فأشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله ، ويأتوا السحرة المساحرين ، ولو فطن هؤلاء ما طلبوا ذلك ؛ لأن موسى وأخاه ليسا من السحرة المعروفين بالسحر ، فكيف يصدقون أنه ساحر ؛ وأنه عليم بالسحر والسحرة لهم مقصد وهو المال وما إلى ذلك من متاع الحياة الدنيا وهم لم يرغبوا فى ذلك ، بل هم لم يطلبوا إلا إظهار الحقيقة الربانية بإفراد الألوهية لله ، وتحرير بنى إسرائيل من الظلم والاسترقاق ، ولكن المحاجاة تستمر ، لإبطال كيد فرعون وتدبيره ، وفراعين اليوم نستطيع أن نبطل تدبيرهم ومكرهم باللجوء إلى الله ، وطلب المعية الربانية .

قال صاحب الظلال فى قوله تعالى : « ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ » تظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير ، والجماهير تتجمع لمثل هذه الأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليشغلها عما تعانى من ظلم وكبت وبؤس » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الشجاعة ورباطة الجأش فى مواجهة الظالم ومرتكبى المنكرات مع الكياسة والحكمة .

٢ ـ لا مساومة فى قضية التوحيد ، وإنها هى الحقيقة الأولى فى الحوار والجدال .

٣ ـ أن يتوقع الداعية دائما كل اضطهاد وعنت ، وأن دعوة الله لا تلتقى ودعوة الشيطان .

٤ ـ الاستعانة بالأدلة الحسية من فنون وأساليب الدعوة إلى الله .

٥ ـ مشروعية الشورى فى كل من الأمور .

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
٣٦٩

عانى الكلمات :

بعزة فرعون : أى تقسم بعظمة فرعون .

لا ضير : لا ضرر علينا فيما يصيبنا .

شرذمة : طائفة قليلة .

مقام كريم : منازل حسنة .

مشرقين : وقت شروق الشمس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بفضل الله ومنته على المؤمنين .

٢ ـ أن يعرف المؤمن جوانب معية الله لموسى عليه السلام ومن معه .

٣ ـ أن يخطط المؤمن لكل أمور دعوته وحياته .

تفسير الآيات :

ويأتى مشهد جديد وهو مشهد السحرة بحضرة فرعون ، وهم يطلبون منه الأجر والمكافأة ، وهنا يظهر الفرق ، فموسى رسول من رب العالمين يأتى بمعجزات باهرة ، والسحرة جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية تبذل مهاراتها فى مقابل الأجر والقرب من عرش الطاغية ، لا علاقة لتلك الجماعة بعقيدة ، وهؤلاء يتخذهم الطغاة دائما .

يقول الإمام **محمد أبو زهرة** فى زهرة التفاسير : « أقر فرعون طلبهم أولا ، بقوله : (نعم) الدالة على استحقاقهم ، وعدالة طلبهم ، وقرر جزاءين :

الجزء الأول : الأجر ، وقال : إن لكم لأجرًا مؤكدًا الأجر بأنه لهم ، واستحقاقهم ، وإنه أجر كبير لتنكير أجرا ـ أى أجرًا عظيما لا يقادر قدره .

والجزاء الثانى : الذى يعد جزاء كبيرا عند الملوك والطغاة ، وهو أن يكونوا مقربين ، وهذا التقريب إليه ، يتضمن مزايا معنوية فى نظرهم ، وهو الرضا السامى ، كما كنا نسمع من عبارات الثناء على المقربين عند الملوك ، والذين كانوا يقلدون فرعون فى طغوانه ، وإن كانوا فى معاملة الرعية شرًا منه ، ويتضمن مزايا أخرى بأنهم ينالون جزاء مما يسلط على العباد بتسليطهم ، ويتضمن مكاسب مادية من السعاية والإفساد ... » .

ثم يأتى مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام، والتحول العظيم عندما جمع السحرة أمرهم، وألقوا حبالهم مستعينين بعزة واهية هى عزة فرعون ، ويلقى موسى عصاه فتلقف حبالهم ، ولا يبقى لها أثر فهزتهم المفاجأة ، وأزالت عنهم ركام الضلال ، فألقوا ساجدين ناطقين بكلمة الإيمان لا بموسى وهارون بل بربهما ، ويتحول القلب البشرى الذى هو كما قال رسول الله ﷺ: « ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » لأنهم علموا أن القضية ليست سحرا ، وأنهم أمام معجزات تجاوز قدرات البشر ، فالقضية هى العقيدة وأنهم ليسوا أمام ساحرين بل رسولين .

ولا زلنا نتابع التأييد الإلهى بالمعجزات لموسى وهارون وتثبيت قلبيهما ، وفطانة الكليم فى إظهار عجز فرعون وملته أمام الجماهير المحتشدة ، يتحول السحرة المأجورون إلى مؤمنين من خيار المؤمنين بعد أن عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلى ساحر .

هنا نستطيع أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة وذعر أتباعه من الظلمة حين يرون أن العروش تهدد، فيلجؤون للتهديد والعقاب ، ويرمون المؤمنين بالتآمر وقلب الأنظمة باستخفاف الشعوب وإلباس الحق بالباطل ، فيتهم موسى الذى ربى فى بيته بأنه كبير السحرة .

ثم تتواصل ملحمة الإيمان فى هذا المشهد العظيم بقول المؤمنين : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ فلا خوف ولا هلع من تقطيع الأيدى والأجل من خلاف ، لا ضير فى التصليب والعذاب ؛ لأن مطمع المؤمنين غفران ذنوبهم ، وما يشفع لهم أنهم من السابقين إلى الإيمان . ومن هنا نلمح لما كان المسابقون إلى الدعوات الربانية هم أكثر الناس صبرا وتحملا للبلاء ، وأشد الناس حماسة لدعوة ربهم .

وتستمر العناية الإلهية ، والمعية الربانية بالوحى لموسى أن يخرج بقومه ليلا ، ويعلمه ربه بالسبب ، وهنا يجول الذهن ، ويقف عند الهجرة النبوية ، وأمر الله لرسوله بالخروج سرا ،

وقبلها أمرُه ـ عز وجل ـ لنبيه لوط عليه السلام بأن يخرج بأهله ليلا ، ولا يلتفت إليه أحد من القوم ، يلمح فى ذلك كله التخطيط الدقيق ، والهجرة من ديار الكفر والسرية ، وتقدير قوة العدو .

ولا يزال الهلع يسيطر على فرعون مدعى الألوهية ، فيأمر بحشود الجموع ، وتجييش الجيوش لموسى ومن معه الذين قاموا بالإعداد للخروج خلسة ، فأراد أن يقضى على الفئة المؤمنة التى إن خرجت ستزلزل عرشه وشخصه ، ويستدعى الذهن مؤامرات المشركين لقتل الرسول ورفض نفيه ، ومحاولات الظلمة والجبابرة منع الدعاة من الخروج خارج أوطانهم بل تعقبهم بكل السبل .

ويأتى موقف البطانة بطانة السوء فى صلفهم واستكبارهم بتهوين شأن موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه بأن يتبعوا أمرهم ويحزموا مكائدهم ، كل ذلك للحفاظ على مراكزهم ولإظهار القوة والقرب من فرعون .

يقول صاحب الأساس : « وهكذا لخص الله لنا بأربع آيات تدبير فرعون ضد بنى إسرائيل ، وهو التدبير المستمر للطغاة فى كل العصور ضد أهل الحق : يحشرون الناس ، ويجمعونهم بسلطة السلطان ، فيعقدون الاجتماعات والندوات ، ويسيّرون المسيرات للتوعية ـ فى زعمهم ـ ويقولون عن أهل الحق: إنهم فئة قليلة منحرفة عن إرادة الشعب، وخارجة على إرادة الجماهير، وأنهم يقومون بأعمال إجرامية ضد السلطة ، وأن على جميع الشعب أن يكون حذراً وواعيا ، إن مثل هذا التسجيل الخالد لفعل فرعون ، والذى ينطبق على كل زمان ومكان ، لهو وحده معجزة، ومن هنا نفهم سرّا من أسرار القصص القرآنى ، وخصيصة من خصائصه إن القصة القرآنية نموذج خالد مستمر متكرر فيه عبرة وعظة ودروس لكل إنسان ، وفى كل زمان » .

ولكن منة الله تظهر سريعاً بوراثة موسى وبنى إسرائيل أموالهم وكنوزهم ، ولقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ، فكانت خرجتهم هذه هى الأخيرة ، وكانت إخراجا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ، وهذا أول العذاب للظالمين بتجريدهم من النعيم الذى يرتعون فيه ، فعقاب الله للظالمين واقع بسلب النعم وجلب النقم ، وثوابه ـ عز وجل للمؤمنين شامل بالسكينة ، ومنع العذاب ، ومنح الخيرات ، وكل ذلك لزيادة الدرجات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تنوع فنون الدعوة ، ومخاطبة كل فئة بما يناسبها .

٢ ـ فضل التسابق للإيمان ولعمل الخير ، والترغيب فى ذلك دائما .

٣ ـ التخطيط الجيد ، وأخذ الحذر لمؤامرات الأعداء .

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾
٣٧٠

معانى الكلمات :

مدركون : ملحقون .

الطود العظيم : الجبل الشامخ الثابت .

أزلفنا : قربنا .

عاكفين : قائمين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقبح الكفر وأهله .

٢ ـ أن يعرف المؤمن قصة إبراهيم وشجاعته مع قومه .

٣ ـ أن تكسو المسلم الشجاعة والقوة مع الحلم والأناة مع مرتكبى المنكرات .

المحتوى التربوى :

تصل المعركة بين موسى وفرعون لنهايتها بوصول الفئة المؤمنة إلى البحر وليس معهم سفن ، ومن خلفهم فرعون ، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم ، وتظهر النفس الإنسانية جزعها بقولها : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ولكن ثقة الداعية بربه أكبر ، واليقين بربه آت ، والنجاة كائنة بمعجزة ربانية بانقلاب البحر إلى فرقين ، وعبر بنو إسرائيل بينهما ، فقد وقعت المعجزة ، وتحقق الذى يقول عنه الناس : مستحيل ؛ لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور ، والله الذى خلق السنن قادر أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد .

لكن الظالمين لا يعلمون سنة الله فى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة : ١١٧) وغرق الطغاة فكان الهلاك لهم والنجاة للمؤمنين الذين جاهدوا فى سبيله ، واستقاموا على الطريقة ، ولاحظتهم عيون العناية

الإلهية ، كل ذلك ليستبشر المؤمنون المستضعفون وليثقوا بوعد الله ، فإن الله مع الصابرين ، وهو يدافع عن الذين آمنوا .

يقول صاحب **الظلال** : « ومضت آية فى الزمان ، تتحدث عنها القرون ، فهل آمن بها الكثيرون ؟ ... فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما ، وإن خضع لها الناس قسرًا ، إنما الإيمان هدى فى القلوب » .

وتستمر قضية العقيدة فى حلقة أخرى من القصة القرآنية لا تستلزم النهج التاريخى ، فالعبرة هى المقصودة من دعوة إبراهيم لقومه بأن يتركوا أصنامهم التى لا تضر ولا تنفع ، وهنا نلحظ تصور الفطرة البشرية عبادة غير الله ، فى مقابل الفطرة المرتكسة التى انحط أصحابها ، وهذا الواجب على الداعية أن يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، وأن يبصر المجتمع من حوله بضلاله، فأخذ إبراهيم يوقظ القلوب الغافية ، وينبه عقولهم المتبلدة إلى هذه السخف الذى يزاولونه ، بلا وعى وبلا تفكير .

وأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذى يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ، وهذه الأصنام لا تسمع عبادها ، وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر ، فإن كانت صماء لا تسمع ، فهل هى تملك النفع والضر ؟ ولم يجب القوم بشىء ، إلا أنهم وجدوا آباءهم يعكفون عليها فعكفوا مثل ما عكفوا .

ثم يأتى جواب الظالمين ليتأكد أن حجة الكفار هينة ، وردهم مخجل ، ولكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه ، وقاله كفار مكة بأنهم يتبعون آباءهم فى كفرهم ، وهنا يظهر التحجر العقلى والانحراف عن الهدى فى هؤلاء المشركين أو من المبتدعة الذين يصرون على بدعهم الفاسدة وقوانينهم الباطلة التى تطفح ضلالا وزيغاً وعندما يرشدونه فلا يسترشدون بل يرمون غيرهم بالرجعية والجمود ثم التآمر ثم يهددونهم .

ولم يكن أمام داعى الحق إلى أن يجاهرهم العقيدة الصحيحة وبعداء آلهتهم ، وعادى آباءهم الأقدمين وهكذا يعلم القرآن المؤمنين كما يقول صاحب **الظلال** : « أن لا مجاملة فى العقيدة لوالد ولا لقوم ، وأن الرابطة الأولى هى رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هى قيمة الإيمان ، وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون » .

ولبيان سبب العبودية لله أمام الصورة القبيحة للكفار ، وهم يعبدون الأصنام ، يأتى الخليل بصفات الله عز وجل يعلن نبيه كمال الإقرار بالفضل الإلهى ، فهو يطعم ويسقى ، فهى الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، ثم إذا مرض ، فهو يشفى ، وكمال الأدب النبوى يظهر فى عدم نسبة المرض لله ، كما لم ينسب موسى ، النسيان لله بل نسبه للشيطان ، فالله ينفع أما الأصنام فلا تنفع

ولا تضر ، والله بيده الموت والحياة كل ذلك فى استسلام ورضا عميق ، وليطمئن الدعاةُ السالكون فى طريق الرسالات النبوية ، ولا يجزعوا من اتهامات التجويع والتنكيل والمصادرة والفصل والسجن والقتل ؛ لأن الأمور بقدر الله .

ويستمر الإقناع النبوى المستمد من الثقة من عون الله ، فالأصنام لا تسمع الكفار حين يدعون ، أما إبراهيم الأواه المنيب يعرف ربه الذى يسمع الدعاء وهو يطلب غفران ذنوبه ، وكما يقول صاحب الظلال : « وهكذا يجمع إبراهيم فى صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين ، والإقرار بتصريفه للبشر فى أدق شؤون حياتهم على الأرض ، والبعث والحساب بعد الموت ، وفضل الله وتقصير العباد » .

قال أبو السعود : « ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه ﷺ من الصغائر ، وتنبيها لأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم ، فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله ﷺ ، مع كونه فى طاعة الله ـ تعالى ـ وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة ، فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر ، وفنون المعاصى والخطايا ؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها إنما تغفر فى الدنيا ؛ لأن أثرها يومئذ يتبين » .

وتظهر قيمة الحرص على الدعوة والتواضع ؛ الأولى فى طلب الحكمة كى يستمر فى الدعوة لله على بصيرة وهدى،والثانية فى أن يلحق خليل الرحمن أبو الأنبياء بالصالحين!فشرف المؤمن وعزه وسؤدده فى قربه من ربه ، وذله إليه هو فخره بين العباد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ظهور فضل الله على من يتمسكون برسالته ، وينبغى التذكير دائما فى كل مجتمع للناس ندوة ـ محاضرة ـ خطبة .

٢ ـ الشجاعة أمام الظالمين والمبتدعين ومرتكبى المنكرات ، وتغيير المنكرات ، وتغيير المنكر كلٌ حسب استطاعته .

٣ ـ دوام الدعاء والاستغفار لله عز وجل .

٤ ـ أن يسلك المؤمن سبيل الله والتواضع لله فى كل أموره .

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
٣٧١

معانى الكلمات :

لسان صدق : ثناء حسناً .

أزلفت الجنة : قربت .

برزت : أظهرت .

الغاوين : الضالين .

كرة : رجعة .

الأرذلون : السفلة المذنبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بقيمة دعوته وقيمة استمرارها .

٢ ـ أن يعرف الداعية بعض نماذج حرص الدعاة على استمرار دعوتهم .

٣ ـ أن يستمر الداعية فى دعوة أولاده وعشيرته الأقربين .

المحتوى التربوى :

يستمر الخليل فى دعائه وابتهاله الذى يبين ارتباط الدعاة بالعقيدة لا بالنسب بأن يكون له فى نسله ألسنة صادقة تدعو كما يدعو بالحق وبالحنيفية السمحة ، وبأن يسلكوا مسلك الصالحين بالعمل الصالح كى يصلوا لجنة النعيم ، لأنه لا واسطة ولا قربى إلى الله إلا بالقلب السليم فلا ينفع الأبناء الطالحين آباؤهم الصالحون ، والعكس لا يصح، فاستغفار إبراهيم وما فيه من دلالة البرِّ بَيّن القرآن فيما بعد أنه لا تجوز ، لأن الرابطة هى رابطة العقيدة ، فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ، وكانت البعدى التى لا تبقى معها صلة أو شيجة .

ثم يأتى المشهد الذى يبقى المؤمن دائما على أهبة الاستعداد للعمل لله والإخلاص ، وهو تصور يوم القيامة وعدم الخزى فيه ، وأهل الجنة ينعمون ، والجنة تقترب منهم .

يقول صاحب الأساس : « وبهذا عرفنا المطالب العليا للمسلم الكريم : الحكم ، والصلاح ، وحسن الذكر فى الله ، والجنة ، والمغفرة للآباء ، وعدم الذلة يوم القيامة » .

وأما الكفار الظالمون ، فالنار تظهر لهم ، ويحشر الكفار فيها ويتخاصمون ويتمنون أن يرجعوا فيؤمنوا ولات ساعة ندم ، وتلك نهاية فى الآخرة كما أشارت القصة السابقة لنهاية فى الدنيا ، وتلك نهاية الكفر، وهى موضع العبرة تُعرض فى القرآن كأنها واقعة تشهدها الأبصار حين تتلى ، وتتملاها المشاعر .

قصة سيدنا إبراهيم هى التى أمر الرسول محمد ﷺ بأن يلقيها على قومه – لأن الدعوة أكثر تشابها والكفار فى زمن الرسول عباد صنام ، والعقاب فيها فى الآخرة ، وهذا يجب التفطن إليه فى الدعوة بأن تستدعى الأسئلة فى مواضعها للترغيب فى الانضمام فى الدعوة وركابها ، وللترهيب من النكوص إلى الضالين المجرمين ، ومن توبة الأصنام برب العالمين ومن اتخاذ رؤوس الكفار أربابا من دون الله .

ثم يرجع السياق القرآنى تاريخيا لقصة لنوح عليه السلام وبدأنا نتيجة دعوة نوح مع قومه ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحا ، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين .فالرسالة فى أصلها واحدة وهى الدعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبودية له ، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين فهذه دعوتهم أجمعين .

يقول صاحب الظلال : « ينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هى أمته ، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير ، وإذا الصف الآخر هم الكفار فى كل ملة وفى كل دين ، وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعا ، ويحترم الرسل جميعا ؛ لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هى رسالة التوحيد .

إن البشرية لا تنقسم فى تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان ، إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل ، وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل فى كل زمان وفى كل مكان ، وهكذا يتوحد الميزان فى يد المسلم على مدار التاريخ كله ، وترتفع القيم فى شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن ، والقرابات الحاضرة أو الموغلة فى بطن التاريخ ترتفع فتصبح قيمة واحدة ، هى قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع ، ويقوّم بها الجميع » .

وتأتى الآيات بالقصة من بدايتها بأمره لقومه بالتقوى والطاعة وهو ترتيب لازم فلا طاعة مقبولة بلا تقوى ، والتقوى تحرك صاحبها نحو العمل لا الخمود والركون والدعوة لله .

ثم يطمئن من يدعوهم لشفافية الدعوة وأنه لا يطلب بها أجرا لأن العباد لا يقدرون الأجر، ولا يستطيعون الوفاء به إن قدروا ، ولأن الله الذى كلفه بالدعوة ، ولتمييز دعوة الله عن دعاوى

الكهان ورجال الدين المنحرفين الذين استغلوا الدين لابتزاز الأموال ، لكن دعوة الله الحقة دعاتها متجردون لله لا يطلبون مقابلا فى الدنيا ، بل يتوقعون الإيذاء والتعذيب فضلا عن التكذيب ، أما أجرهم فعلى رب العالمين . فى تكرار قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

قال النسفى « كرره ليقرره فى نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منها بعلة ، فعلة الأول : كونه أمينا فيها بينهم ، وعلة الثانى : حسم طمعه منهم ، كأنه قال : إذا عرفتم رسالتى وأمانتى فاتقوا الله ، ثم إذا عرفتم احترازى من الأجر فاتقوا الله » .

قال صاحب الأساس : « وبشكل عام فإن كل رسول طالب قومه بالتقوى والطاعة ، وأعلن أنه لا يريد على دعوته أجرًا دنيويا ، مما يدل على أن الطاعة التى يريدها الرسل هى من أجل كمال الإنسان ، وليست من أجل مقصد دنيوى ، كما يطلبها أهل الدنيا استزادة للجاه ، أو رغبة فى تحقيق هدف دنيوى من ورائها ، وهذا أدب عظيم يجب أن يلاحظه وارث الأنبياء ، وطلاب الوصول إلى رضوان الله ... ، ثم إنه لا بد أن يلاحظ الدعاة ألا يطلبوا أجرًا فى مقابل الدعوة إلى الله ، وهذه قضية مهمة جدًا ، قل من يلاحظ خفاياها فى نفسه ، وندر من يعطيها تطبيقاتها العملية ..» .

ثم يبين السياق أن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب ، وهو اعتراض مكرور فى البشرية مع كل رسول : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ ، وهم يعنون بالأرذلين الفقراء ، وهم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة ، ومن ثم فهم الملبون السابقون .

فأما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم،وتقعد بهم مصالحهم القائمة على الأوضاع المزيفة. المستمدة من الأوهام والأساطير التى تلبس ثوب الدين ، ثم هم فى النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة ، قيمة الإيمان والعمل الصالح ، قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين ، بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحرص على استمرار الدعوة ، وتوريثها للأبناء .

٢ ـ الاستغفار للآباء إن لم يموتوا مشركين .

٣ ـ تصور يوم القيامة والجنة والنار وما فيهما .

٤ ـ أن يتعود الداعية على البذل والعطاء فى الدعوة ، ولا ينتظر أجراً أو مقابلا فى دعوته .

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ
عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
٣٧٢

معانى الكلمات :

المرجومين : المقتولين بالحجارة .

الفلك المشحون : السفينة المملوءة .

ريع : مكان مشهور .

مصانع : قصورا أو حصونا .

بطشتم : اعتديتم .

أوعظت : أنصحت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بهوان الدنيا ، وقبح من يجعلها شغله .

٢ ـ أن يعرف الداعية عاقبة الانهماك فى ملذات الدنيا .

٣ ـ أن يستخدم المؤمن نعم الله مع شكر المنعم .

المحتوى التربوى :

يأتى العون الإلهى لنوح عليه السلام فى جداله مع قومه بأن عملهم موكول إلى الله لأنه نذير من الله ، لا يطلب من الناس سوى الإيمان ؛ ولأن الرسالات للناس جميعًا غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم .

قال صاحب الأساس : « وفى ذلك كله دروس بليغة للدعاة إلى الله ، فإن كثيرين يحرصون أن ينفض الناس عن الدعاة من خلال إيجاد هوة بين الداعية والمستجيبين له ، وإن كثيرين يطالبون أن يعرض الدعاة عن الأتباع الفقراء ، أو الضعفاء جسما أو عقلا أو سلوكا ، وواجب الأتباع ألا يخدعوا ، وواجب الدعاة ألا يفعلوا ، فمهما كانت ظواهر الخلق إليهم منقادة فعليهم قبولها ، ومحاولة تزكيتهم ، وهذا شىء وأن يخدع الداعية شىء آخر » .

ولأن الباطل حجته واهية،فلجأ قومه إلى مسلك الطغاة وهو التهديد عندما أعوزتهم الحجة، وأعجزهم البرهان وتلك عادة أعداء الله : أنهم يلجؤون إلى التهديد فى النهاية لثنى الدعاة إلى الله عن دعوتهم .

ثم يأتى اللجوء إلى الله عندما يبذل الدعاة كل جهدهم ، ولا يلاقون من المدعوين إلا الصد والإعراض والتكذيب ، ويطلبون النجاة لهم ولمن يدعونهم فنُجىّ المؤمنون بالدعاة ، فلولا الدعاة لهلكوا ، ثم كان العقاب الشديد للظالمين بالإغراق للذين كذبوا الداعى إليهم ـ وأعرضوا عنه فترة طويلة من الزمان ، وفى هذا ليتعظ السالكون فى الدعوة بأن يؤوبوا إلى ربهم فى كل أمر؛ حتى يكونوا آهلين للمعية الإلهية .

ثم حلقة أخرى من حلقات الدعوة إلى الله والانتصار لقضية العقيدة ، وهى دعوة نبى الله هود عليه السلام ـ لقوم عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، جاء إليهم أخوهم هود يدعوهم لما فيه رشادهم وصلاحهم ونجاتهم بأن يتقوا الله ويلتزموا أوامره ، وشأنه كشأن الدعاة لا يطلب أجراً من الناس ، لأن الله هو الذى كلفهم ، وهو الذى يأجرهم .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير عن آيات قصة عاد : « **وهى تدل أولا** : على أن الكافرين بالرسل لا يعارضون الآيات وينكرونها ، إنما هم لجحودهم ينكرون أصل الرسالة الإلهية إلى البشر ، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ؛ إذ لا يؤمنون بالغيب ، وإنما يؤمنون بالأمور المحسوسة فقط ، والإيمان بالغيب هو التدين .

وتدل ثانيا : على أن الرسل أمناء الله تعالى على خلقه وإرشادهم وتقويمهم .. **وتدل ثالثا**: على أن رسل الله لا مطمع لهم فى أمر دنيوى ، وإنما يريدون الهداية والتقوى والإيمان .. **وتدل رابعا**: على أن التقوى مطلب النبيين أجمعين .. **وتدل خامسا** : على أن طاعة الرسول واجبة لأنها طاعة لله تعالى .. » .

وقوله تعالى : ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ فيها ملمح أن الداعية يجب أن يكون من جنس قومه ، يعرفون نسبه وسيره وسيرته، وعندما كذبوا كان تكذيبهم لأسباب واهية، وقال بعدها : « **أنا رسول الله**، فلا يدعوهم لنفسه بل لله ، و ﴿أَمِينٌ﴾ فيهم » لا يريد لهم إلا الخير .

ولابد من مجاهرة الظالم بظلمه وكشفه ، وينكر نبى الله عليهم الترف فى البنيان لمجرد التباهى بالقدرة ، وينكر عليهم الثراء والاستزادة منه والاستطالة فى البناء ، لأن هذا يجعلهم فى غفلة عن تقوى الله ووقايته ، ولأن الركون إلى الدنيا، والغرق فى ملذاتها يعمى البصائر عن رؤية الحق واستجلائه .

وهنا يلمح تقدير قيمة المال ودوره فإنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظرين من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول ، ومن ثم سماه عبثا ، ولو كان هداية المارة ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد ، وتنفق البراعة ، وينفق المال فيما هو ضرورى ونافع لا فى الترف والزينة ، ومجرد إظهار البراعة والمهارة .

وتسوق لنا الآيات نتيجة الركون للثراء والترف فى أن يغشى القلبَ الضلالاتُ حتى يظن المترفُ أنه سيخلد ، ومظنة الخلود البخل والكفر والعناد ، بل ينتقل ذلك إلى البطش بالآخرين وعدم التحرز من القسوة ظنًا منه أنّ الدنيا باقية، لذا كان التحذير من الدنيا وصية الرسول ﷺ ، وأن أشد ما يخاف على الدعاة هو أن أن تفتنهم الدنيا بزخرفها ، فيستخفهم أعداؤهم .

ثم تتواصل ملحمة الدفاع عن العقيدة وإثبات نعم الله بأنه كان الواجب عليهم تقوى الله وطاعته؛ لأن ما يتمتعون به هو من فيض النعيم الإلهى، وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا ، إن من أعطى هذه النعم ويسرها قادر على أن يذهبها .

نرى هنا أن شكر النعم هو أداء حقوقها ، وأولها إخلاص العبادة للمنعم ، أما جحود النعمة والاستكبار ، وجحود فضل المنعم هو المستلزم للعذاب العظيم وهو تحذير لعادٍ من أخيهم ، وهو واحد منهم أمين فى إخلاصه ونصحه ، داعية يؤلمه أن يرزقهم الله ، ولا يشكر بل يجحد وينكر ، ويعبد سواه ، يتبعهم بكل سبيل بأن يهديهم الله سبيل الرشاد ، ويخوفهم من عذاب عظيم فى الآخرة .

لكن هذه التذكرة وهذا التخويف لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة ، فاستوى الأمران الوعظ أو عدمه ، فالقلوب أصابها الجمود والتحجر بسبب الركون للدنيا والاغترار بها .

وهذا يطمئن الدعاة فى كل وقت ، لا يصيبهم القنوط عندما يرون إعراض من يدعونهم بأن ذلك ديدنهم إلا من هداه الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ قيمة الإنسان بعمله لا بنسبه وماله وسلطانه .

٢ ـ وجوب استثمار المال فيما يفيد المؤمن فى دنياه وأخراه .

٣ ـ ذم المغالاة فى الاستكثار من المال والأبنية ، وإن التواضع يزين صاحبه .

٤ ـ وجوب التفكر فى نعم الله التى تكتنفنا وتلفنا .

٥ ـ اتباع كل سبيل يرقق القلوب بالذكر والدعاء ، والحذر من غلظة القلب وقساوته .

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾
٣٧٣

معانى الكلمات :

آمنين : مخلدين .

هضيم : رطب نضج .

فارهين : مستعلين .

فعقروها : فقتلوها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بقيمة الطاعة الحقيقية .

٢ ـ أن يعرف الداعية جزاء العاصين لأمر الله ورسوله .

٣ ـ أن يلتزم الداعية فى دعوته بالطاعة الكاملة لله وللرسول ، ولأمراء المسلمين بالضوابط الشرعية .

المحتوى التربوى :

تستمر الآيات تعرض ما ترتب على ظنهم أنهم مخلدون فبعد البطش والجحود ظنوا أنهم لن يعذبوا .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « وإن ذلك النفى يتضمن ثلاثة أمور :

أولها : إنهم لغرورهم يقررون أنهم لا يعذبون ، وليس من شأنهم أن يعذبوا ، ويتضمن **ثانيا** : إنكار البعث وتلك خلة الكافرين، ويتضمن **ثالثا** : أنه إن كان بعث فلن يكون العذاب نصيبهم، بل تكون حالهم فى الآخرة هى حالهم فى الدنيا ، ذلك ما يأفكون به ، وهم الضالون » .

obeikandi.com

ولم يكن عجبا أن يهلكوا لتطوى صفحة من صفحات المكذبين تكررت وتتكرر ، ويقول فى ذلك صاحب **الظلال** : « وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو ، وتغتر هذا الغرور ، وتبعد عن الله كلما تقدمت فى الحضارة ، وتحسب أن الإنسان قد أصبح فى غنية عن الله ! وهى تنتج من أسباب الدمار لغيرها ، والوقاية لنفسها ، ما تحسبه وإقبالها من أعدائها ، ثم تصبح وتمسى ، فإذا العذاب يصب من فوقها ، ومن تحتها عن أى طريق » .

ثم تتواصل ملحمة إثبات التوحيد بحلقة أخرى من حلقات الدفاع عن العقيدة مع قوم ثمود وأخيهم صالح ، وهؤلاء كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، ومر النبى ﷺ بدورهم المدمرة فى غزوة تبوك فرأوا آثارهم للاعتبار لا للانبهار ـ فأتاهم رسول من رب العالمين أمين فى نصحه لهم لايطلبون مغنما إلا من عند الله ، وهو من جنسهم رفيق بهم ، أتاهم صالح ليحذرهم سلب النعمة التى أقحمتهم ، فأصمت آذانهم عن سماع الهدى وأعمت عيونهم عن رؤية الردى الذى ينتظر المستكبرين كل هذا ؛ لأن الدنيا قد سكنت قلوبهم ، فظنوا أنهم خالدون فيها ،فعمروها وخربوا آخرتهم .

ويذكرهم صالح عليه السلام بنعم الله التى أتوا إلى الدنيا وهى باقية ، وما فنيت وفنوا من سكنوها ، وأن هذه الجنات والزروع وثمارها تتجدد كل يوم ، وتأتى إليهم طيعة ، وما غير ذلك من الجبال من الرواسى الشامخات التى سخرها الله لهم فظنوا بيوتا تخلدهم ، وهنا يظهر الفارق بين المؤمنين الذين يستقبلون نعم الله فيؤدون شكرها قولا وعملا ، أما ديدن الظالمين ، فالبطر والاستكبار والتعالى بها لا يملكون .

ويتحدد سلوك الظالمين عندما يدعون إلى التقوى والطاعة فلا يلبون ، وألا يتبعوا سبل المفسدين الذين أسرفوا وغووا ، لكنهم يستكبرون عندما تموت القلوب التى فى الصدور ، فيرون من يرمونهم بالسحر ، وهم يعلمون السحرة وتعاويذهم ، ويرمونه بالقدح ـ فى ظنهم ـ لأنه بشر ، وما علموا أن البشرية مع الرسالة هى عين التشريف والتعظيم ، فإنه مثلهم ينام ، ويقوم ، ويأكل ، ويشرب ، ويتزوج ، ولكن الله وهبه الرسالة وما يتبع ذلك من الاتصال بالملأ الأعلى ، وعلى الدعاة أن يتوقعوا من الطغاة كل جريمة ، وكل تهمة تلصق به ؛ لأن فى بقاء فساد المجتمعات إبقاء لأنفسهم ومطالبهم ، وفى صلاح المجتمعات هدمٌ لهم وإزالةٌ لسلطانهم .

يقول صاحب **الأساس** : « إن قول الله تعالى على لسان صالح عليه السلام :﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝ ﴾ يفيد أن الطاعة ينبغى أن تكون للرسول ﷺ كاملة وألا تعطى لكل مسرف مفسد غير مصلح ، وموضوع الطاعة من أخطر مواضيع العصر ، فنادرًا ما تجد مسلما يضع الطاعة فى محلها ، فهو إما متمرد على كل شىء ،

أو مطيع لمسرف ، أو يرفض الطاعة لأى أحد ، أولا يعرف لمن يعطى الطاعة ... ولا يجوز لمسلم أن يعطى طاعته لكل صاد عن سبيل الله غير ملتزم بالإسلام » .

يقول الإمام محمد أبو زهرة « المسرفون هم الذين يخرجون بطبيعتهم البشرية عن حد الاعتدال إلى حد الإسراف فيسرفون فى شهواتهم حتى يصيروا عبيدًا للشهوات ، ويسرفون فى أوهامهم فيحسبون ما تدفع إليه الأوهام حقيقة ، وليست إلا وهما باطلا ، ويسرفون فى طلب السلطان فلا يحسبون أنه لإقامة العدل والقسطاس المستقيم ، ويسرقون فى القوة فلا يحسبونها لحماية الضعفاء ، بل يظنونها للاستعلاء والاستكبار عليهم ، وليجعلوهم عبيدًا أذلاء ، وهكذا كان المسرفون مفسدين لنفوسهم ولمجتمعهم » .

ونتابع المعية الربانية بإمداد رسوله بمعجزة حتى يقيم الحجة عليهم ولكن أنى لمن سكنت الدنيا قلبه أن يهتدى؟ ! وكيف لمن عمى عن رؤية نعم الله الذى يعيش فى ظلالها أن يؤمن بمعجزة من خالق الجنات والزروع الهضيم والعيون والجبال ، ثم كيف أن يطيعوا أمر الرسول فى شأن الناقة وقد كفروا بالتوحيد الخالص ، فلم ينسكب الإيمان فى القلوب الجاسية ، ولم يحفظوا العهد ، ولم يفوا بالشرط .

ويأتى تحذير نبى الله لهم لما رأى من خبث نيتهم وسوء طويتهم ، وتحقق ما توقعه فعقروها وعذبوا ، ورغم أن العاقر واحد والمؤتمرين تسعة إلا أن الجميع كانوا راضين فنسب العقر لهم جميعًا ، فليحذر الدعاة الناس من الركون إلى الذين ظلموا حتى لا يمسهم العذاب ، وإن الكفر يستشرى ، والبدع تشيع لسكوت الناس عنها ؛ ولأنهم لا تتمعر وجوههم من رؤية المنكر، فأخذوا بالعذاب مع الظالمين وهم كثرة ، والمؤمنون العالمون قلة ، وتلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير .

ويأتى التعقيب المتكرر بأن الله سبحانه هو العزيز القوى القادر على إبداع الآيات ، وأخذ المكذبين بالعذاب ، الرحيم الذى يكشف عن آياته ، فيؤمن بها من يهتدى قلبه ، ويمهل المكذبين فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ذم التقليد وعرض كل الأمور على كتاب الله وسنة الرسول وتحكيمها .

٢ ـ أن يكون الداعية بكل الصفات الطيبة التى تجعل كلامه مقبولا لمن يدعوه .

٣ ـ الحذر من الذنوب وعواقبها .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
٣٧٤

معانى الكلمات :

تذرون : تتركون .

المخرجين : المطرودين .

القالين : الكارهين .

الغابرين : المعذبين .

الأيكة : الشجر الكثيف .

القسطاس المستقيم : العدل .

تبخسوا : تنقصوا .

لا تعثوا : لا تفسدوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة السلوك الاجتماعى للداعية .

٢ ـ أن يتعرف الداعية على بعض جوانب السلوك للأمم فى قصص الأمم الظالمة .

٣ ـ أن يكون الداعية إيجابيا مع من حوله .

المحتوى التربوى :

يستمر النسق القرآنى فى عرض حلقة أخرى وهى قصة لوط وهى مع قصة إبراهيم تاريخيا ، ولكن الترتيب التاريخى ليس مقصودًا ، بل العظة والعبرة من عاقبة وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين الأطهار الذين طهرت قلوب وأجسامهم ولم ترتكس فطرتهم .

هنا كان التكذيب من قوم لوط من نوع آخر ، فقد استنكر لوط عليه السلام عليهم قلب الناموس الربانى ، واعوجاج الفطرة السليمة بأن يأتى الذكورُ الذكورَ وهى فعلة تشمئز منها الفطر السليمة ، وتنفر منها النفوس المطمئنة ، فأنكر عليهم الداعية بأن يعتدوا على سنة الله فى خلقه

وقد منحهم الفطرة السليمة باجتماع الذكر والأنثى ، وكان شديدًا فى نهيه لهم ، فالجرم شنيع، والذنب فادح .

قال صاحب الظلال : « والخطيئةالمنكرة التى عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى فى وادى الأردن) هى الشذوذ الجنسى بإتيان الذكور وترك النساء ، وهو انحراف فى الفطرة شنيع ، فقد برأ الله الذكر والأنثى ، وفطر كلاً منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته فى امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى فكان هذا الميل طرفا عن الناموس الكونى العام ، الذى يجعل كل من فى الكون ، وكل ما فى الكون فى حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود ، فأما إتيان الذكورُ الذكورَ فلا يرمى إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه .

وعجيب أن يجد فيه أحد لذة ، واللذة التى يجدها الذكر والأنثى فى التقائهما إن هى إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة ، فالانحراف عن ناموس الكون واضح فى فعل قوم لوط ، ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ... » .

ولم يفت فى عضده تهديدهم له بإخراجه من بينهم ، وما نقموا منه إلا طهارته ، فأعلن الولاء لله والبراء من عملهم الفاسد وبعض ضلالهم ، وطلب الهجرة من دار الإثم والفجور والنجاة إلى أرض صالح أهلها ، فتنزل العناية الربانية على لوط وأهله بالنجاة ، ولأنه لا نسب موصول إلا الإيمان ، ولا رابطة إلا العقيدة ، فقد هلكت زوجة لوط دون أهله جميعًا ؛ لأنها كانت ترضى بما يفعل قومه ، وتنتصر رابطة الإيمان على عاطفة المصاهرة ، كما انتصرت على عاطفة الأبوة مع نوح عليه السلام ، والبنوة مع إبراهيم عليه السلام .

وكان عقاب الله واقع بقرية سدوم فدمر الظالمون ، ونزل المطر الذى كان هلاكا لهم ولغسل الأرض من أفعالهم المرذولة المشينة ، ولتظل قراهم أمام الرسول والمؤمنين شاهدًا على هوان الظالمين ، ونصر الله للمؤمنين مهما بدا الكفر عزيزا كبيرا فإن الإيمان أعز ، وصلتهم بالله ، أكبر وبالمعية أكثر ناصرا وعددًا .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ فى قصة موسى أن الخطيئة البارزة التى جاء موسى عليه السلام لعلاجها هى الظلم المتمثل بادعاء فرعون الربوبية ، وظلمه لبنى إسرائيل ، وأن الخطيئة البارزة التى جاء إبراهيم لعلاجها هى شرك قومه وعبادتهم للأصنام ، وأن الخطيئة البارزة التى جاء نوح عليه السلام لعلاجها هى الشرك ، وأن الخطيئة البارزة التى جاء هو وصالح يعالجانها هى الشرك مع البطر ، وأن الخطيئة الارزة التى جاء لوط عليه السلام يعالجها هى إتيان الذكور مع الشرك ، فالشرك

هو العلة التى تنبع عنها كل الخطايا ، وكما أن مهمة الرسل هى هداية الناس إلى الله رب العالمين ، فإن مهمتهم أن يبعدوا الناس عن الخطايا كلها » .

وحلقة أخرى من ملحمة الدفاع عن العقيدة ومعالجة الخلل الأخلاقى فى قصة شعيب عليه السلام مع أهل مدين يدعوهم ، وهو رسول من رب العالمين أمين فى خوفه عليهم ودعوته لهم بأمرهم بقاعدة الرسالة ، وهى إخلاص العبادة لله بتقواه ، والتقوى تتبعها الطاعة ، ولأن الرسالات منهج حياة للإصلاح فى الأرض ، ولتقرير قواعد التعامل بين الناس ، ولإيصال مفهوم العبادة بمعناها الشامل .

يقول صاحب الظلال : « إن المعاملات لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة، هذه هى نظرة الإسلام ، وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوصافهم ومصالحهم الظاهرة لهم » .

إن فساد العقيدة يتبعه فساد السلوك وسيطرة الهوى ، وكان للداعية ـ شعيب ـ دور بأن دعاهم لإيفاء الكيل ، وألا يأخذوا حقا زائدًا عن حقهم ، وألا يأخذوا حقوق الناس بشرائها بثمن بخس وبيعها بثمن مرتفع ؛ لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تفصيل فسادهم ظهر فى سياق القصة فى سورة الأعراف بأنهم كانوا يقطعون الطريق على من سواهم ، ويفتنون الذين يؤمنون ، ويصدونهم عن سبيل الله .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « والعثى أو العثو ، الفساد النفسى أو المادى ، ونميل إلى العثى النفسى ، والمعنى القصد إلى العثو مفسدين حال مؤكدة لمعنى العثو ؛ لأن العثو يؤدى إلى الفساد فى الجماعة ، فيتقاطعون ، ويتدابرون » .

تظهر هنا العاقبة الوخيمة لغياب التربية والعقيدة ، وما يتبع ذلك من حب الدنيا ، وسيطرة سلطان المال وما يتبعه من سلك كل طريقة مرذولة لجمعه من بخس الناس أشياءهم ، فيعذب أبدانهم الحرام فلا يتورعون عن ارتكاب الحرمات ، وقطع الطرق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن يكون للمؤمن دور فى علاج الخلل الاجتماعى ، والانحرافات السلوكية .

٢ ـ هجر أماكن السوء ، ومواضع المنكر وتحذير الآخرين منها .

٣ ـ إدراك قيمة المال فى الحياة ، ونزع كل حب للدنيا من القلب .

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ
عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ
فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ
إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

معانى الكلمات :

الجبلة الأولين : الخلائق السابقة .

كسفا : قطع عذاب .

زبر الأولين : كتب الرسل السابقين .

بغتة : فجأة .

منظرون : مهملون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن عظمة معجزة القرآن .

٢ ـ أن يعلم المؤمن موقف المشركين واليهود من دعوة الرسول والقرآن .

٣ ـ أن يداوم الداعية مدارسة القرآن وسيرة الرسول ﷺ .

المحتوى التربوى :

تتواصل الدعوة (لمَدْين) حين يدعوهم أخوهم شعيب بأن يتقوا الله قولا وعملا ، فالله هو خالقنا فيجب إقرار العبودية له عز شأنه ، وخلق من قبلنا الذين فنوا وما أغنى عنهم مالهم وما جمعوا وحشدوا ، وهو تنوع فى الدعوة من داعى القوم ؛ ليفكروا فى خلقهم والأمم السابقة قبلهم .

هزت الدعوة قوم شعيب ، وخاف الظالمون على أوضاعهم الباطلة فاتهموه بأنه مسحور يخلط ويهذى ، ولم يكتفوا بتلك التهمة ، بل استنكروا استكبارًا أن يكون الرسول بشرًا ، واستمروا فى طغيانهم وضلالهم حتى عموا عن رؤية الحق الجلىّ فاتهموه بالكذب ، وكيف يكون

obeikandi.com

مسحورًا قد عراه السحر ، والكذب وهمٌ مقصود ، وهذه هى الأباطيل التى قالها الضالون مع كل نبى ورسول ؛ ليتأكد للرسول ﷺ والدعاة من بعده أن سنة الدعاة أن يواجهوا بالتكذيب والإعراض .

وتتواصل الإحاطة الربانية بأهل مدين حين طلبوا آية من شعيب ، واستفتحوا العذاب على أنفسهم بضلالة الشيطان لهم ، فأظلتهم سحابة كان فيها هلاكهم ، أما المؤمنون فكان توكلهم على ربهم كما جاء فى سياق القصة فى سورة الأعراف : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (الأعراف : ٨٩) ، **ويقول صاحب الظلال** فى ذلك : « إنه ـ أى شعيب ـ يعرف مصدر القوة وملجأ الأمان ، ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق والطغيان ، ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، فالله مولى المؤمنين والظالمون لا مولى لهم » .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « إن السحابة إذا كانت حارة فيها نار يكون العذاب شديدًا ، والألم مريرًا ؛ لأنه تكون النار حيث يرجى الظل لا الحرور ، وقالوا : إنه فى يوم الظلة أحسوا بالحر ، فلجؤوا إلى ظل سحابة ، فكانت الظلة القاتلة وراءها الدمار ، فأصبحوا فى عذاب ، وبذلك كان العذاب الساحق الماحق من جنس ما طلبوا وهو كسفا من السماء .

وكانت هذه آية من الله مرشدة هادية لمن يعيشون مثل عيشهم ظلما وعدوانا ، وأكلا لمال الناس بالباطل والعدوان ، والعثو فى الأرض فسادًا ، وهى دالة على أن شعيبا كان يدعوهم بالحق ، وهم المبطلون » .

ويعود السياق القرآنى فى الخطاب للرسول محمد ﷺ بعد قصة الرسالة الإلهية وقواعدها ، والتكذيب من الأقوام وإنجاء الله للمؤمنين وعقاب الله للظالمين ، وكان لكل نبىّ آية مع قومه انتهت معه ، لكن آية هذه الأمة هى القرآن هى آية باقية فالمعجزة باقية ، والانتفاع بها مستمر والتكذيب لها مستمر ، وعقاب المنكرين بها مطرد ، نزل بلسان عربى بلغتهم ، لكنه بنظمه ومعانيه وبمنهجه ، وبتناسقه يشى بأنه من مصدر غير بشرى .

يقول الإمام أبو زهرة : « وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بثلاث صفات معلية له ، مشرفة بنسبته فوق شرفه الذاتى من بلاغة وشمول الشرع :

الأولى : أنه تنزيل من رب العالمين ، والتنزيل النزول جزءًا بعد جزء منجما مقطعا ، ليسهل حفظه ، وليرتل ترتيلا ، وليعلم النبى قراءته وتلاوته ، ويتعلمها منه أصحابه ...

الثانية : أنه نزل بالوحى نزل به الروح الأمين على قلبك الروح الأمين هو جبريل ... لتكون من المنذرين أهل الضلالة عن غوايتهم ، ودعوتهم إلى التوحيد ...

الثالثة : أنه باللغة العربية .. فترجمة القرآن إن كانت ممكنة (وهى ليست ممكنة) ليست قرآنا .

الرابعة : أن أكثر ما فيه من معان وقصص ، وشرائع فى زبر الأولين ، أى إن القرآن الكريم بعضه فى كتب الأولين ... » .

ويستمر تكابر المشركين والظالمين من أهل الكتاب الذين يعرفون الرسول وصدق رسالته ، وتستمر المعية الربانية فى تسرية قلب الرسول بأن العناد يلازمهم ، أنه لو نزل هذا القرآن على أعجمى ما آمنوا ؛ لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل .

ويقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ : « والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب ، فيقول : إنه على هذه الهيئة ، هيئة عدم الإيمان والتكذيب بالقرآن ، على هذه الهيئة نظمناه فى قلوبهم وأجريناه ، فهو لا يجرى فيها إلا مكذبا به ، ويظل على هيئته هذه فى قلوبهم ، حتى يعاينوا الوعيد ، وذلك عند الموت ، وفى هذه الحالة يكون الإيمان إيمان يأس فلا ينفعهم ، أو المراد به العذاب الربانى فى الدنيا فيأتيهم فجأة ، وهم لا يشعرون بإتيانه ، ووقتها يسألون النظرة ، والإمهال طرفه عين ، فلا يجابوا إليها » .

وكان دأب قريش دأب الأمم هو استعجال العذاب ، وكان التعليل القرآنى بصورة الخطاب أنهم قد يتمتعون سنين ، ثم يأتيهم هذا العذاب كأن النفس الضعيفة تظن أن النفوس الضعيفة والفطر الفاسدة عندما تركن لمتاع الدنيا تجحد النعمة وهى ترتع فى النعمة تستعجل بالعذاب استهزاء واستهتارًا ؛ ويستبعدون الانتقال من النعيم للعذاب ، شأنهم شأن ذوى النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ، ثم يأتيهم العذاب ، وستكرر الحادثة فى كل زمان ومكان بأن الدعاة إلى الله هم الغالبون ، وإن المجرمين فى ضلال وسعر ، لأن الله ينصر رسله ، والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب التفكر فى خلق الإنسان .

٢ ـ وجوب مدارسة القرآن وتدبره .

٣ ـ مدارسة سيرة الرسول ﷺ ومعرفة جهاده وتتناول مواقف المشركين معه .

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي
بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ
بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾
سُورَةُ النَّمۡلِ
٣٧٦

معانى الكلمات :

ذكرى : تذكرة وعبرة .

اخفض جناحك : تواضع .

أفاك أثيم : كثير الذنب .

الغاوون : الضالون .

منقلب : مرجع ومصير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الشعر الإسلامى .

٢ ـ أن يتعرف المؤمن على فضل الرفق فى الدعوة .

٣ ـ أن يسلك المؤمن مسلك الرحمة واللين فى دعوته .

المحتوى التربوى :

وتواصل الآيات عرض مصير المكذبين للداعى إلى الله ، وما متعوا به لم يغنهم شيئاً ، ولم يخفف عنهم عذابهم ، والعذاب لم يقع بهؤلاء القوم ولا وقع بكل القرى إلا بعد أن أقيمت عليهم الحجج ، وأرسل إليهم الرسل ليذكروا الناسين ، ويوقظوا الغافلين ؛ لأن فطرة الله بالإيمان فى كل نفس ، وعلى الدعاة أن يبلغوا رسالات ربهم ، وهذه صفة الله العادل بين العباد؛ لأن الله لا يظلم الناس شيئًا .

والملاحظ أنه يأتى هذا الموضوع فى الخاتمة ، بعد أن عرض الله علينا فى السور ستة نماذج على إهلاكه قرى أُنذرت فكذّبت ... وبعد أن أثبت الله أنه هو الذى أنزل هذا القرآن ، وأقام الحجة

على ذلك ، وعرض لموقف المجرمين ، وسبب هذا الموقف ، وردّ على استعجالهم العذاب ، يأتى الآن نفيه القاطع أن يكون للشياطين صلة بموضوع إنزال هذا القرآن ، ومجىء هذا النفى يشير إلى الشبة الكافرة الجاحدة التى لا زال الكافرون يثيرونها ، وهى أن محمدًا ﷺ ـ وحاشاه بأبى هو وأمى ـ كانت له حالات غير صحية تحدث له تخيلات وأوهام ، هى أثر عن وسوسات وصراعات ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وتأتى الآيات لتدمغ تهمة أخرى للكفار فتجعلها زاهقة وهى أن هذا القرآن من وحى الشيطان ، وكبرت كلمة من أفواههم إن يقولون إلا إفكا وزورا فالقرآن للهدى والصلاح ، والشياطين تدعو للضلال والفساد والكفر ، وما هم بمستطعين أن يأتوا به ، فهم معزولون عن سماع الوحى به من الله ، إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين ، وليس هذا بميسور للشياطين ، وهل تستوى مناهج الأمم التى ضلت وأضلت مع مناهج الإسلام الناهلة من معين القرآن ، وكيف يهتدى الظالمون وهم بعيدون عن الوحى الإلهى ، فكان التحذير للمؤمنين بعد ذلك ممن سلكوا مسلك الكافرين من اتخاذ مناهج الكافرين فيكون مصيرنا كمصيرهم .

قال ابن كثير : « ذكر سبحانه أنه يمتنع عنهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، أى ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ... ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك ... ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل حين استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرسا شديدًا وشهبا فى مدة نزول القرآن على رسول الله ﷺ .. » .

يقول صاحب الظلال : « الخطاب لرسول الله ﷺ يحذره من الشرك ـ وهو أبعد من يكون عنه ـ ليكون غيره أولى بالحذر .

وتحدد الآيات بعد ذلك منهج الدعوة لله كى تصل للغاية المأمولة ، وهى دعوة العشيرة والأقربين لتقوية الدعوة ؛ ولأن قرابتهم من صاحب الرسالة لا تنفعهم فهى دعوة الله الخالصة؛ ولأنه إن آمنت عشيرة الداعى كان تأثيره فيمن يدعوه من غير عشيرته أكثر ، وأسلوب الدعوة بخفض الجناح للمؤمنين ؛ لأنه لو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله ، أما الكفار فيجب إظهار العزة أمامهم ، والعصاة يجب التبرء من أعمالهم بعد نصحهم .

ثم توضح الآيات من الذى يستحق نزول رحمة الله من الدعاة ، ومن الذى تحيط العناية الربانية هو من أخلص العبادة لله ، ودوامه على السجود ، وهو قمة الخضوع والقرب من الله،

ويقول صاحب الظلال فى هذا : « يشعر الرسول ﷺ أنه فى كنف ربه وفى جواره وقربه ، وفى جو هذا الأنس العلوى كان يعيش » .

ويأتى الدفاع القرآنى عن الرسل ومناهجهم بأن مناهج الشيطان تنزل على الضالين الذى يسعون وراء الأوهام والخيالات ، أما القرآن فهو منهج قويم نزل على النبى الكريم ليهديها لأقوم طريق ، والرسل ما ينبغى لهم أن يكونوا شعراء ، فللشعراء أوهام وأهواء وانفعالات متقلبة ، ويحلقون فى عوالم لهم ، أما صاحب الدعوة المحددة له هدف ومنهج وطريق .

يقول صاحب الظلال : « إن طبيعة الإسلام ـ وهو منهج حياة كامل معد للتنفيذ فى واقع الحياة ، وهو حركة ضخمة فى الضمائر المكنونة ، وهذه طبيعة لا تلائم طبيعة الشاعر الذى يخلق حلماً ثم يقع به ، أما الإسلام فيريد تحقيق الحلم » .

وفى نهاية السورة كان استثناء لبعض الشعراء من الغواية ، وهم الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات قولا وعملا ونصروا عقيدتهم ، وسخروا بيانهم لدعوة الله كحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

ويوضح صاحب الظلال ما نقصده بالشعر الإسلامى : « ليس من الضرورى أن يكون دفاعًا ولا دفعا ، ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ، ولا تمجيدًا له أو لأيام الإسلام ورجاله ، وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح ممزوجة بشعور المسلم الذى يربط هذه المشاهد بالله فى حسه لهى الشعر الإسلامى فى صميمه ، وإن لحظة إشراق واتصال بالله لكفيلة أن تنشئ شعرا يرضاه الإسلام » .

وتختم السورة بهذا التهديد المخيف للظالمين يوم يرون العذاب فى جهنم ، وقد ظلموا أولا بالشرك ، وثانيا بتكذيب الرسل ، وثالثا بإنكارهم للقرآن ، ورميهم له بأنه تنزل به الشياطين ، وقد أضافوا إلى ذلك ظلم العباد والصد عن سبيل الله ، والمنقلب هو انقلابهم من الطغيان إلى المهانة ومن رغد العيش إلى شدته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب استشعار أمانة تبليغ دعوة الإسلام والاهتمام بها .

٢ ـ الانفراد فى العبادة بعمل الصالحات .

٣ ـ تنوع وسائل الدعوة من خطبة وندوة ومقال وقصيدة شعر .